اثر الفرد فى الحياة الاجتماعية

للأستاذ إبراهيم الفطريفى

استعرضنا تطور الحياة الاجتماعية وأصل الظواهر البارزة فيها وأتينا على المفارقات الشاسعة بين طبقات الشعب وما تتعرض له الأغلبية الساحقة من السكان وهم جمهور الزراع والمشتغلون بالصناعة والتجارة المتعلمون منهم أو العمال سواء من الناحية المادية أو من الناحية العلمية وسواء إذا ما زاولوا أعمالهم أو إذا ما اضطرتهم ظروف الحياة إلى البطالة .

وقد خلص لنا أن هناك وسائل كثيرة تتعدد بتعدد نواحى الحياة الاجتماعية تساعد على تحسينها ورفع شأنها .

وفى مقدمة هذه الوسائل ما تبذله الحكومة سواء بالعمل على استحداث نظم جديدة أو وضع تشريعات اجتماعية .

ولكن هناك وسائل فعالة أبعد أثرا وأعم نفعا وهى المحاولات التى يقوم بها أفراد الشعب فى سبيل الإصلاح الاجتماعى ، لأن الحياة الاجتماعية للأمة هى فى تدرجها إلى الحياة الفردية للفرد ثم الحياة العائلية للأسرة ثم الحياة الطائفية لأى جماعة من الجماعات أو هيئة من الهيئات وأخيرا تتألف من كل هذا الحياة الاجتماعية العامة لجميع أفراد الشعب .

فاذا جاز لنا أن نصور جهود الدولة وجهود الأفراد إزاء الحياة الاجتماعية فلنتصور أن مجموع هذه الجهود يكون شكلا هرميا مثلث الأضلاع قاعدته الأعمال التى يقوم بها الأفراد ويتقدم بها المواطنون جميعا وفى نهاية الأعمال التى تؤديها الدولة اذ أنها تتوج سائر الجهود .

ولا نعنى فى هذا المقام مايبذله الأفراد وينظرون وراء ذلك إلى منفعة ذاتية خاصة ويكفيهم إرضاء أنفسهم وإشباع رغباتهم ولا يحفلون بأثر جهودهم على غيرهم أو بحكم مواطنيهم عليها ، فأمثال هذه الجهود ذات الطابع الأنانى لايمكن بحال أن تؤدى الى حياة اجتماعية صالحة وطبعا يتطلب هذا أن يتأثر فى نفوس الأفراد اعتقاد جازم بان لكل منهم أثرا بالغا فى حياة الجماعة وأن مايقوم به من الأعمال يعود على نفسه أولا ولكن يعود على غيره أخيرا وأنها هى المقياس الحقيقى له بين مواطنيه .

ويستوى فى هذا الأغنياء والفقراء والعمال وأصحاب الأعمال والمزارعون وأصحاب الأملاك على اختلاف فقط فى القدر الذى يستطيع كل منهم بذله تبعا لقدرته واستعداده وظروفه وسيترتب على هذا الإدراك ألا نجد بين الجماعة هؤلاء الأفراد المتواكلين الذين يستهينون بأنفسهم ويشعرون بضآلة شأنهم فيعيشون فى هذه الحياة الدنيا ويبارحونها وكأنهم لم يروها كذلك سيتوارى فريق من الأفراد يصور له ثراؤه أو جاهه أنه فى عزلة من مواطنيه ، عما من حياته مطامع يعمل اليها ومآرب يحصل عليها . تتطلب الحياة الاجتماعية إذن أن يشعر كل فرد بأن عليه للمجتمع دينا يجب أن يؤديه وحسابا يجب أن يقدمه .

فقد حبى الله عباده بنعم متعددة وخص بعضهم بالمال وبعضهم بالعلم وبعضهم بالجاه وآثر بعضهم على بعض لهذه الهبات ؛ فما على كل ذى نعمة الا أن يزكى عنها وينزل عن جزء منها اذ أن للمال زكاة وللجاه زكاة .

لقد استتبع تطور الحياة الاجتماعية وجود طوائف من الناس قست عليهم ظروف الحياة وتركتهم بين طفل مشرد أو عاجز عن العمل أو مريض لا يعرف طريقه الى العلاج . ولقد قامت الحكومة وقادة الرأى باعداد النظم والمنشآت التى تكفل إيواء المشردين وإعانة العاجزين وعلاج المرضى فأسست الجمعيات الخيرية والملاجىء والمستوصفات وصناديق الإعانة ومكاتب المساعدات ، ولكن ما الذى يضمن لهذه المنشآت الازدهار والانتشار وما الذى يساعدها على أن تؤدى مهمتها على أعم وجه وأنفعه .

لا شك أن المال هو الدعامة لكل ما تقدم ولا سيما وقد أصبحت أعمال البر ضرورة اجتماعية يتعدى أثرها الى سائر أفراد المجتمع اذ أنه قد انقضى العهد الذى كان يقصد فيه بالإحسان المباهاة والمفاخرة ؛ وهذه لا تكفى أن يغذيها أريحية فردية عارضة أو نفحة من جواد لا يعود اليها مرة أخرى إذ أن الجهات المنظمة من أعمال البر الاجتماعى لا تقوم إلا على إحسان منظم يشترك فيه أكثر عدد ممكن من الأفراد كل على قدر طاقته يساهمون فى المؤسسات المتعددة ويتعاونون فى تغذية صناديق الإعانة ومكاتب المساعدات الاجتماعية ويتسابقون الى الأسواق والمحافل الخيرية فيصبح حب الخير عادة متأصلة فى نفوسهم وابتاء المعروف والإحسان عملا يقومون به لوجه الله ولصالح المجتمع .

هذا أثر الفرد على المجتمع اذا كان لديه فضلة من المال ، أما أثره على الحياة الاجتماعية اذا كان على شىء من العلم فلا يقل شأنا عن أثره السابق وأن للعلم زكاة كزكاة المال تماما اذ أن من واجب المتعلم أن يكون نافعا بعلمه وأن يرد بعضه الى البيئة التى نشأ فيها .

وتجب زكاة العلم على المتعلمين جميعا سواء فى ذلك العامل المتعلم أو طالب المعاهد الدينية أو طالب المعاهد العليا أو حملة الشهادات المدرسية على اختلاف درجاتها وأنواعها كل هؤلاء عليهم أن يشعروا أن للمجتمع حقا فيما يعلمون وأنه ينتظر منهم أن يؤدوا اليه هذا الحق على أى صورة من الصور التى يستلزمها النشاط الاجتماعى ومن حسن الحظ أن الوسائل التى تساعد على تحسين الحياة الاجتماعية وتحتاج إلى جهود الأفراد المتعلمين لا تقع تحت حصر فقد يكون من الممكن أن تحصر الحكومة جهودها التى تزاولها لتحسين الحياة الاجتماعية لأن هذه الجهود محدودة بميزانية معينة وبعدد معين من موظفى الدولة ، أما نواحى النشاط الاجتماعى العامة فلا تحد إذ أنها تتسع للافراد جميعا مادامت بين جوانحهم نفوس تشعر بالواجب عليها نحو المجتمع ، من الميسور أن توضع نظم وأن تسن قوانين لإنشاء النقابات بين العمال أو لإيجاد نظام التعاون أو لتشجيع افتتاح معاهد لحو الأمية أو للدراسات الاجتماعية ولكن ليس من الميسور أن تتغلغل هذه النظم فى نفوس الشعب وأن تتسرب مبادئها الى عقائد أفراده

إلا إذا وطن المتعلمون من الأفراد أنفسهم على الاستفادة من هذه الجهود الرسمية والتوسع فى استخدامها والتياس عليها بل واستحداث أكثر منها، على أن يقوم كل فرد بما يتيسر له فى هذا الواجب القومى حسبة لوجه الله ولوجه الوطن شأنه فى ذلك شأن المدين الذى قام بوفاء دين عليه لدائنيه فلا يرجو من هذا الوفاء جزاء ولا شكورا إذا أن الخدمات الاجتماعية بطبيعتها و بالقياس الى ماحدث فى الدول التى انتشرت فيها لا تنهض إلا على أكتاف جنود مجهولين يؤثرون العمل الصامت ولا يتطلبون من وراء جهودهم إلا نجاح رسالتهم، لذلك فقد أطلق عليهم جيش الخلاص لأنهم يعملون على تخليص مواطنيهم من البؤس الى السعادة ومن الجهل الى العلم ومن التفكك والانحلال الى الهدى .

ولا يتطلب هذا الجيش إلا سلاحا واحدا هو الايمان الصادق بخدمة المجتمع والتعاون فى الوصول إلى هذا الغرض . فلو اتخذ المتعلمون فى مصر هذا السلاح على اختلاف بيئاتهم وأنواعهم عمالا وطلبة وحائزين على مؤهلات دينية أو مدنية ، وهم لا يقلون عن مليونى فرد، وجردوا أنفسهم لمحاربة الأمية ولمحاربة البدع والعادات السيئة وللدعاية للتعاون وللجمعيات التعاونية النافعة وللمشروعات الصالحة واتخذوا من منتدياتهم ثكنات يعدون فيها عدتهم ومن محافلهم ومهرجاناتهم مواقع حاسمة يقضون فيها على ما فى هذا المجتمع من شرور وآثام لنالت الحياة الاجتماعية على سواعدهم فى سنوات ما لم تنله على هذا السير الوئيد البطئ فى أجيال .

أما صاحب الجاه من الأفراد فزكاته أن يسبغ شيئا من جاهه العريض على نواحى النشاط الاجتماعى الذى يهيئه استعداده أو هوايته لها وألا يقعد بجاهه عن الدخول فى ميادين الخدمة الاجتماعية العامة وألا يكون حسبه من جاهه ما يستمتع به فى عمله الرسمى أو ما يشعر به فى المحافل والمجتمعات من الصدارة والتكريم . وما أحوج المؤسسات الاجتماعية والمشروعات القومية الى مكانة ذوى الجاه حتى يكسبها ثقة تحمل الناس على الاقبال عليها وعلى الأخذ بها .

بذلك ينمون ذوو الجاه جاههم فكما يضاعف الله للمتصدقين أموالهم فيرد اليهم الحسنة عشرة أمثالها كذلك ذوو الجاه اذا ما منحوا شيئا من جاههم للخدمة الاجتماعية العامة مكن الله لذكراهم وأبقى اسمهم وجمل خير أمتهم على أيديهم .

وللفرد صاحب الجاه أثر آخر على الحياة الاجتماعية بجانب الأثر الذى يحدثه من مساهمته فى النشاط الاجتماعى وذلك اذا ما كان يتخذ من نفسه مثلا صالحا لمواطنيه ينأى بنفسه عن مواطن الزلل ويقربها الى مواطن الكمال يطابق بين أقواله وأفعاله ولا يقوم بدعوة خيرة الا ويكون هو البادىء بها فيصبح له أجر من عمل بها الى يوم القيامة .

تلك هى آثار الفرد فى الحياة الاجتماعية اذا ساهم فيها بماله أو بعلمه أو بجاهه قد أجملناها وربما عدنا إلى تفصيل ما أجملناه .